مقدمة:

يصير التأويل أداة لاختراق حدود الفكر والمغرفة، لأنه إعادة بناء للأشياء والمواضيع والنظم والمناهج، واكتشاف المجهول في رحلة اختراقه وبحثه ويعيد السؤال الذي يتغيا توسيع آفاق الفهم، إذ لا يقتصر على مجرد ملاحقة الغموض لتبديده، ومتابعة الأسرار لكشفها.

إنّما يترصد الجمالية الشعرية في النصوص والفن، ولا يقنع بذلك بل يتعداهما إلى مساءلة سائر العلوم الإنسانية والثقافات المختلفة والوجود و الكائن وكل ملغز ومحيّر، لا يقتصر على المعاودة /المراجعة وبعث فهوم جديد، بل يتجاوز هذا المطلب ليتحول إلى نظرية تسعى لتأويل الثقافة متتبعا تحولات المفاهيم والمقولات النقدية والفلسفية داخلها، لاكتشاف بؤر الدلالة والمعاني المضمرة في كنفها ليعيد لها الحياة والحركة بعد ما انزوت ساكنة جامدة فيها الموات والجمود.

إنه (التأويل) فعالية أدبية وفكرية ينهض بها المتلقي بعد قراءة دقيقة، ولا يستطيعها إلاّ من أوتي همة وصبرا وذهنا عميقا وعقلا راجحا .

يتبوأ التأويل مكانة متميزة في موقع العلوم التي تتضافر لقراءة النصوص وفهمها، ولإعادة بعثها ولاستحضار المعاني المختلفة والمغيبة أبدا فيها، وبذلك يتم الانتقال م مستوى إلى مستوى دلالي مغاير، ومن طبقة معرفية إلى أخرى لأن القراءة التأويلية تعني الحفر في طبقات النص لفك ملغزه، وقد تقرأ السابقة ما لم تقرأه اللاحقة، وتستنطق ما كان يمتنع عن البوح به لأنه (النص حمّال أوجه).

وهكذا نجد التأويل يحتفظ بخاصية امتلاك فهم جديد للنصوص من طرف الذات المؤولة، لأنه يتجاوز السطح ويعبر إلى أغواره لينوع الدلالات التي تسمح بإعادة ترتيب الأشياء.

إنه البحث الذي لا يتوقف عن ردم الضبابية في كينونة الإنسان للتمييز بين **الظاهر/والباطن والواضح /والخفي.**

يتوسط التأويل القراءة والفهم ليوفق بين عدة متطلبات ثقافية ومعرفية واجتماعية وتاريخية وسياسية ليكشف عن كثير من المواقف التي يتوخاها المؤول بموضوعية، يقبلها النص بدليل عاصم من الزلل، ويرضاها المؤول بشرط ذهني وعقلي.

إذا كانت القراءة تنتج التأويل، فهو بشكل من الأشكال استنتاج حاصل لها يختلف ويتنوع لينجز الاختلاف والتباين في الأشياء والنفوس والطبائع والفهوم والثقافات والمصائر.

وعلى الرغم أن التأويل ليس بجديد كمنهج نقدي في ثقافتنا وقد استثمر في التراث العربي وخاصة في قراءة النصوص الدينية والأدبية والفلسفية نعود إليه حتما كلما استعصت علينا المعاني لاكتشاف ناره من جديد، فلأننا نريد رؤية وجوه المعنى مرّة أخرى نظرة لأنه من الضرورات التي ترتبط بوجود الإنسان.

بعد التخمة المنهجية التيس حصلت للقراء والمؤولين وتآكلت أطروحة القصدية **(قصدية القارئ/ وقصدية النص)** حينئذ تتحرر القراءة وتنأى بسفائنها تيارات التيه، في عباب خلفه عباب وفوقهما سحاب مركوم.

استنادا على هذه المنطلقات يظل التأويل الأدبي مشروعا مفتوحا، ممتدا لا ينتهي يكشف **الخفي /والغامض الصامت /والمحير** يحي معنا في كل الأشياء، ولا تعلن الذات الإنسانية اكتمالها أبدا لأنها مسكونة بنقص وجودي فالمعاني والدلالات اللتان هما نتاج كل تأويل ليست حقائق ثابتة.

هكذا أضحى التأويل غاية يقصدها من يريد امتلاك شطرا من الحقيقة وإن ادعى كل أحقيته في الصواب وفي امتلاك الأصل، ولما كان مرام هذه القراءة الولوج إلى أعماق المشاريع النقدية ومحاولة الإحاطة بأنساقها المعرفية، توسلت في هذه الرحلة بالمقاربة **الابستيمولوجية/والأركيولوجية** لفحص أنظمة الخطابات المختلفة **(دينية/أدبية/فلسفية/عرفانية)** التي تسعى لتحقيق كتابة ثانية، متميزة ومختلفة ومفارقة تحاول تلمس بؤر الدلالة **اللامتناهية/المستحيلة.**

وبما أن التأويل خلق مستمر ووسيلة للتواصل بين الحقب المختلفة والمتباعدة (**حال الثقافة العربية/ والثقافات الأخرى)** التي حصل بينها التساكن والتعايش تارة، **والتصادم / والتبارز تارة أخرى**، سمت القراءة التأويلية وجود معرفي لا يفتأ يتوسع ، يغتني ويكتمل ليحتمي به المؤولون وتلجأ إليه النصوص بحثا عن قراء حاذقين يطلبون نصيبهم من الفهم.

من أجل الإمساك ببعض تلك الغايات توزعت الدراسة في فصول أربعة ومدخل وخاتمة.

خصص فضاء المدخل لرصد مفهوم **التأويل/الهيرمينوطيقا** من الأرض التي ألهته وألهمته المعجزات والخوارق وكسته الحلل البهية ثم يهجر ويتحول إلى أرض جديدة تلتهمه فكرة فأصبح المصطلح (التأويل) بضاعة فرضت نفسها، وضارع المصطلحات والمفاهيم العظمى في الثقافات الحديثة، وقد تبين لي أنه ليس أمرا هينا تتبع المصطلح بحمولته المعرفية، وزخمه التداولي التمكن من قراءته وتوظيفه داخل المناهج النقدية لأنه يتحول في كل حين ولابد والأمر كذلك الاحتراز والحذر من الفهوم العديدة للمصطلح في سائر توظيفاته.

أما الفصل الأوّل فكان لدراسة قضايا التأويل الأدبي لدى البيانيين، ووجب الاعتراف أن الثقافة العربي تستند على الثنائيات : **الظاهر/الباطن اللفظ/المعنى** فرحت أبحث عن الاستعمالات والتوظيفات التصنيفية لمصطلح البيان في ثقافة النص الخالد لإعادة تشكيل أسئلة التأويل العربي للولوج إلى الأبعاد الحضارية التي يرنو إليها، وما حدث بسب التأويل من اقتتال وتناحر، صادرته بعض الفرق واتخذته ذريعة لتحقيق مآربها وركبته أخرى لتجعلها مطية إلى السياسة وتدخل العقل لينير ويرفض أن يخضع للتأويل إذا لم يكن مضبوطا بقوانين دون أن يغلق باب الاجتهاد حتى يحصل الإجماع فيما لا يمكن حال أن يجتمع عليه أهل العلم.

ثم صوبت وجهتي في الفصل الثاني نحو قضايا التأويل البرهاني لدى الفلاسفة الذين ألجموه بلجام العقل وراحوا يضعون له الشروط في شتى الرؤى الفكرية المختلفة من سائر العلوم التي حدث فيها التضارب والاختلاف والتمايز بين الفلاسفة والمفكرين سواء في الفكر الغربي أوالعربي مبرزا دور العقل البرهاني في التأويل، وقد صدّرته بتعريف وضبط مصطلح البرهان في الاستعمال العربي والقرآني ودور الفلسفة والفكر في إنارة استراتيجيات التأويل، لأن العقل التأويلي لا يهتم في

صميم دعواه على أحاديته بقدر ما يتعدد ويختلف ويغاير، لأن الحق واحد ولا يمكن حصره في فكر معين أو اجتهاد يتوقف.

لأُوَّلِّـــي قبلتي في الفصل الثالث إلى قضايا التأويل العرفاني لدى المتصوفة فرحت أعّرف العرفان لغة واصطلاحا في المنظومة الفكرية الغربية والعربية باحثا عن بذور التصوف في الثقافتين ومدى تأثر إحداهما بالأخرى وانتقال هذا التأثير من أرض مجهولة إلى أرض فيها منابت الخير والتعدد والنماء في التشريع واللغة وسائر أمور الحياة.

وعرّجت على الخطاب الصوفي أنقب عن أثر اللغة لتفكيك **الرموز/ والإشارات /والدلالات** في هذا الفكر الذي حاول أن يبحث عن تأويل للغيبيات والظنيات عن طريق التجربة الشعورية في البحث عن قضايا الوجود الأنطولوجي، وكيف أَوّلَ المتصوفة **العدم/والكائن/والوجود/والمعراج/والشطح**...ثم أنهيته بالسبل الكفيلة لإيجاد تأويل مناسب لهذه الطائفة من رواد الفكر (**المعتزلة، الشيعة، الباطنية، الإسماعيلية**...) .

وختمت الفصل رابع مفتشا عن دور العقل في صناعة التأويل الأدبي وتحول هذا العقل إلى أداة لتأويل الفهم وتأويل المعرفة مع مدارس مختلفة حين يتمرد التأويل في النصوص التخييلية (**الشعرية والسردية**) وتجنح الدلالة إلى التخفي فيحدث انشطار بين النص والمؤول ولا ينسجمان إلا إذا حدث توافق تولده الجزئيات التي يصنعها المتلقي ليقبل على النص دون لَيِّي عنقه وتقويله ما لم يقل لأن الأدب خطاب الإنسان للإنسان.

أما الخاتمة فلم تكن نشازا عن سير الدراسة ورصد أهم شتات ما ترنو إليه هذه القراءة التأويلية، لأنها نهاية الرودان ومستقر الرحلة، وإذا كنّا نردد دوما شكوانا: أنه لا يخلو أي جهد من مصاعب ومتاعب لأن المتعة والذهن يحترق والفكر يتعذب والرؤى تستنير أكبر من الاعتراف بالصعوبة، وعزائي في الجولة داخل **الثقافتين/ المتمايزتين** الغربية والعربية في مطاردة الهارب أبدا — التأويل /أنه استحق أن يستوي منهجا، ومشروعا وسؤالا مفتوحا لا ينتظر إجابة بقدر ما يدعونا إلى إعادة قراءة ذواتنا ووجودنا ومعارفنا وتجديدها وفق متطلبات العصر والراهن.